صـــور سودانية . . .

للاستاذ عباس حسان خضر

[هذه الصور من وحي عهد كان لنا بالسودان ، وكان لنا فيه أهل بأهل وإخوان باخوان . . .]

الخرطوم :

هنالك على مبعدة من الخرطوم ومقربة من أم درمان[1] يلتقي النيلان : الأبيض والأزرق . وكم وقفت أشاهد هذا الاقتران الدائم الخالد ، وكم تفرجت بمرأى الموجة الزرقاء تجد في أثر البيضاء ، هذه تتدلل وتلتوي ، وتلك لا تيأس ولا تني ، حتى تدركها آخر الأمر ، فتمتزجان ... وقد تعطف البيضاء على الزرقاء ، فتسيران كحبيبين يمشيان الهوينى عِطفاً إلى عِطف ، حتى إذا قطعتا شوطاً أمنتا بعده أعين الرقباء امتزجتا ...

ولست أنسى تلك الليالي القمرية التي كان مدير حديقة المقرن ينظمون فيها حفلات موسيقية راقصة ، ولم يكن هم أولئك الراقصات من بنات الروم اللائي يملأن الخرطوم ، ولا موسيقى الجيش المصري — لم يكن أولئك ، وهن قيد النواظر ... ولا هذه ، على جلال خطرها ، ليمشي من التسلل بين الأشجار على شاطئ النيل الأزرق ، حتى أبلغ ذلك الرأس الذي ينتهي عنده الشاطئان المنتهيان ، فانظر كيف تم اتحاد النيلين ، على اختلاف اللونين ... ثم يحتضن الشاطئان الباقيان النيلَ المتحد ، فيسير بينهما ، يبعث الحياة في واديه ، ويومئ بالوحدة بين بنيه ...

سانية المرغني :

والنيل الأزرق قبل أن يلتقي بالأبيض يمر بشمال مدينة الخرطوم متجهاً إلى الغرب ، وعلى شاطئه مما يلي المدينة شارع طويل واسع جميل ، يبتدئ من شرق الخرطوم إلى غربيها ، ثم يدعها سائراً مع النيل الأزرق إلى المقرن

وذلك الشارع من أجل شوارع الدنيا ... يقع فيه قصر الحاكم العام ، وقصر السيد المرغني ، ومنزل مفتش الري المصري ، وفندق فخم يسمى (الجراند أوتيل) ، وما عدا ذلك دور لكبار البريطانيين . وقد وقفت على جانبيه أدواح ممتدة الأغصان كثيفة الأوراق ، تكاد تسقف الشارع ، فتقي السائرين لفحة الرمضاء ؛ ولا تقع العين من خلل أشجار الطوارين إلا على صفحة النيل الزرقاء الصافية من جانب ، وحدائق الدور الكبيرة الحافلة بشتى صنوف الثمار والأزهار من الجانب الآخر ، حتى تصل إلى قصر السيد المرغني الزعيم الديني الكبير الذي يلهج الشعب السوداني باسمه في حركاته وسكناته — فترى هناك في مقابلة هذا القصر على حافة النهر ساقية يجرها ثور ، تحمل الماء إلى حديقة القصر ، وهي خاصة خُصَّ بها ذلك السيد الجليل ... ولا تستهن بهذا الغلام الذي يحث الثور إذا توانى ، فهو يشعر شعوراً قوياً ببركة سيده ، ويثلج قلبه للقيام بهذه الخدمة ، ويزدهي ببلوغه هذه المرتبة ... ترى ذلك على وجهه ، وتلمحه في ابتسامته الراضية المفترة عن أسنانه البيضاء الناصعة ...

وبعد ، فما ذا تقول هذه الساقية ، أو عم تعبر موسيقاها الواهنة في أنينها ... القوية بتأثيرها ؟

فهمتها مرة تتألم لوحدتها في هذه البقعة التي جعلت الدنية فيها رفع المياه بالطرق الآلية الحديثة ، وبودها لو ترى لها جارات أمام قصور سادات كسيدها ... ومرة أخرى أدركت ما ترمي إليه من ترتيلها المتصل الدائب الذي لا ينقطع إلا إذا غفل الغلام عن وقفة الثور ، كأنها تدل على جدوى العمل المتصل في يقظة الراعي ... ومرة ثالثة سمعتها تزهى بأنها تروي وتطرب ... وكثيراً ما قالت لي : أنت اليوم هنا ، وغداً تكون هناك في الشمال ... فهل ستذكرني ؟

ربيع السودان :

في الوقت الذي يشتد فيه البرد بمصر حين يكون الشتاء — ينعم السودان بجو دافئ مشرق ، تنبعث فيه الحياة ، ويدب النشاط في كل شيء ، ينشط الإنسان بعد أن ران عليه صيف طويل ثقيل ، وتهش نفسه للطبيعة التي لانت له بعد شدتها ، وتهدي

(١) ليس التقاء النيل الأبيض بالأزرق عند الخرطوم كما يقول الجغرافيون ، وإنما هو أقرب إلى مدينة أم درمان ، وهو يبعد عن الخرطوم نحو (١٥ كيلو) .

إليه الأزهار شذاها مع الهواء الذى ينسى برقته ما كان من لفحه وهبوبه[1] ، ويكون النبات الذى ترعرع على فيضان النيل قد نضج وآتى أكله ، فتكثر الخضروات ، وتعم الخيرات ...

فى ذلك الوقت (من أواخر ديسمبر إلى أوائل مارس) يكون الجو فى السودان معتدلا ، لا يكاد الإنسان يشعر ببرد إلا فى الليل ، فإذا ما طلعت الشمس صبت حرارتها على الأرض كأنها مدفأة كهربية ، وكأن الأرض كلها غرفة عملت فيها المدفأة عملها ، فما ينتصف النهار ، وتحمى الشمس ، ويحل وقت الغداء ، حتى يلذ أكل البطيخ الدائم هناك ، كأنك فى صيف القاهرة !

ونحن فى مصر لا نكاد نتمتع بالربيع ، إذ ينقلب البرد إلى حر ، لا يفصل بينهما إلا أيام قليلة كأيام السعادة ، تشوبها تغيرات فجائية كما تشوب السعادة طوارئ الهموم والأكدار ؛ أما السودان فإن الطبيعة تعوضه الربيع (الذى يسمونه شتاء) عن قسوتها عليه سائر العام بطول الصيف وشدة القيظ

جمال الليل :

ولولا ليالى الصيف الجميلة لكان شواظاً من نار ، فالليل هناك فى الصيف متعة أى متعة ! لا يجلس أحد ولا ينام تحت سقف ، فكل بيت له حديقة أو فناء ، حيث توضع (العنجريبات) فى المساء ، و (العنجريب) : سرير صغير ، خفيف المحمل ، لين المرقد ، ولم أر أجمل من ليل كنت أقضيه على (عنجريب) فى حديقة منزلى بالخرطوم ، تتنزل إلىّ أشعة القمر من خلال أوراق الشجر ، كأنها روح من السماء يهبط على نفسى بالطمأنينة والرضى ... وتنعشنى نسمات الليل الرقيقة ، وينقع غلتى كوز ماء من (الزير) الصغير الذى يأخذ من (العنجريب) مكان (الكومدينو) من السرير فى حجرة النوم ...

وماء ذلك (الزير) فى ذلك الليل هو الذى يشبه عمر بن أبى ربيعة وَجْدَه بحبيبته بالوجد به إذ يقول :

قال لى صاحبى ليعلم ما بى : أتحب القتول أخت الرباب ؟
قلت وجدى بها كوجدك بالعذ ب إذا ما منعت طعم الشراب

عيون المها :

وما دمنا بصدد روائع فى السودان ، فلا مفر من تينك العينين اللتين تبدوان فى وجه المرأة السودانية ، ولا تكاد ترى منها غيرهما ، وها حسبك ! فهى ملفقة بالملاءة البيضاء ، ترى فتور عينيها فى مشيتها ، تصطنع الأناة والتمهل ، وتعد ذلك من تمام الجمال والدلال !

ولست أدرى ما ذا أقول فى تلك العيون ولم يدع الشعراء شيئاً يقال فيها إلا نسبوه إلى « عيون المها ... ؟ » على أننى قد رأيت المها ، وتأملت عيونها ، فلم أجد فيها شيئاً من جمال عيون السودانيات ...

ويظهر أن إخواننا السودانيين يخشون السهام التى تنطلق من تلك العيون ، فلم يسمحوا بعد للمرأة أن تنزل إلى جانبهم فى ميدان الحياة العامة ، فنواديهم خالية منها ، وهى تحوم حولها ، فما أشبه ذلك بما وصفه الشاعر :

كأن عيون الوحش حول خبائنا
وأرحلنا الجزْع[1] الذى لم يُثَقَّبِ

عباس حسان خضر

(١) تهب فى السودان ريح شديدة تسمى (الهبوب) وهى تأتى بعد فترة سكون يشتد فيها الحر ، وتكون محملة بالرمال ، وتسوق سحاباً ثقالا ، ويخيل إلى من ينظر إلى سوادها أنها جدار قام من الأرض إلى السماء ، فيظلم الجو ويشتد الأمر على الناس حتى تهدأ العاصفة بنزول المطر الغزير ، فيصفو الجو وتهبط درجة الحرارة ؛ ويكون ذلك فى يولية وأغسطس وقليل قبلها وبعدها ، وتسمى هذه الفترة هناك (فصل الخريف)

(١) الجزع : خرز فيه بياض وسواد تشبه به العيون .

الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصرى يقدم :

إلى المعلمين والمربين والوالدين والمفكرين

١ — آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية

٢ — آراء وأحاديث فى التربية والتعليم

وهما خلاصة مطالعات ، وزبدة تجارب ، فى ترتيب منطقى ، وأسلوب سهل ، وصورة مشوقة . يطلبان من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة ٢٠ قرشاً للأول ، ٣٠ قرشاً للثانى عدا أجرة البريد